الهولوكوست.. واشكالية الحقيقة:

رد الاعتبار لضحايا الهولوكوست لا يتم أبدا إلا من خلال الاعتراف الحقيقي بضحايا الهولوكوست الثاني ـ الفلسطيني

الخطاب العربي سطحي يعطي إسرائيل مبررا للهجوم.. والاعتراف بما حدث يجردها من «احتكارها» الأخلاقي للمحرقة

نائل بلعاوي*

يكتب التاريخ، في اكثر الاحيان، مرتين، مرة كما يراه المنتصر، صاحب اللحظة والحقيقة معا. ومرة كما يحلم به المهزوم.

لتصبح (الحقيقة) بذلك، وعلى يدي المنتصر كما المهزوم ايضا هي الغائب الوحيد عن اللحظة التاريخية موضع النزاع، ويصبح الباحث عنها، كالباحث عن الابرة اياها في كومة القش الشهيرة. التاريخ الذي يكتب مرتين ومرات عديدة احيانا اخرى، والحوادث التي تروى باشكال ودوافع مختلفة راسمة اهدافها المتباينة عبر ذلك، اضافة للمصالح التي تخلقها الاحداث ذاتها، سوف تلتقي جميع العناصر المذكورة هذه لتبني معا حائطا عاليا يلتف من حول الحقيقة التاريخية المستهدفة. لن تقفز هذه السطور من على ذلك الحائط العالي، ولن تستطيع. فكل ما يمكن فعله الان، عند تناول مثل هذه الموضوعة الاشكالية، «هولوكوست» هو النظر عبر تلك الشقوق الصغيرة التي حفرتها العديد من الايدي والاقلام في واجهة ذلك الحائط حيث تتاح، ضمن شروط الحد الادنى، فرصة النظر الى ما اختفى من وقائع هناك، مع التأكيد هنا على ان التاريخ بشكل عام هو حامل طبيعي لدوافع نسبية، اليس كل شيء، في نهاية المطاف، نسبيا بالضرورة؟ والحقيقة كذلك؟

«الهولوكست»

من بابه الواسع، ذلك المعمد بالدم واوجاع الضحايا، اخذ التاريخ الى حضنه الكبير، في النصف الاول من القرن العشرين، ذلك الحدث الشهير هولوكوست، جاعلا من هذه المفردة اللاتينية القديمة (هولوكست = ضحايا الحريق) عنوانا مسجلا ومحتكرا بشكل نهائي لسيرة الاضطهاد التي مرت بها الاقليات اليهودية في اوطانها الاوروبية بين الاعوام 1939 ـ 1945 والتي وصلت ذروتها الحقيقية في معسكرات الاعتقال الجماعي التي اقامتها القوات الالمانية النازية في مختلف البلدان التي وقعت تحت سيطرتها. وكان اوشفتيز ـ بولندا واحدا من اكثر تلك المعسكرات شهرة وعنفا، فهناك ظهرت لاول مرة غرف الغاز وافران الحريق التي تفتقت عنهما العقلية النازية خلال بحثها المحموم عن حل «نهائي للمسألة اليهودية»، ومن هناك، انتقلت الفكرة الجهنمية الى العديد من معسكرات الاعتقال الاخرى. ومن هناك ايضا، عرفت البشرية لاول مرة حقيقة الجرائم التي ارتكبها النازيون.. «اي جنون هذا.. لقد احرقوا الناس في هذه الافران». بهذه الكلمات نطق الضابط الروسي عند دخوله اوشفيتز قائدا لمجموعة صغيرة من قوات الجيش الاحمر لتحرير السجناء.

وبمثل هذه الكلمات تقريبا انتهت الجلسة الاخيرة من محاكمات نورنبيرغ الشهيرة 1945 ـ 1946: «معسكرات الاعتقال هذه والافران التي احرقتم الناس فيها، ما هي الا تعبير صريح عن طبيعة نظامكم العنصري».

وكانت الكلمات الاخيرة اعلاه والتي جاءت يومها على لسان رئيس القضاة في نورنبيرغ قد طارت في اليوم التالي الى رؤوس الصفحات الاولى في الصحف الاوروبية والامريكية الكبرى، لتبدأ من هناك رحلتها نحو الاستقرار النهائي في وسائل الاعلام وفي لغة الخطاب اليومي، كما في الادب وانواع الفنون الاخرى، ثم، وهذا هو الاهم، في الوعي الجمعي لسكان المعمورة آنذاك، وفي الذاكرة الجماعية لسكانها اليوم.

لقد اصبحت مفردات: غرف الغاز والافران التي تحرق فيها جثث الضحايا لازمة ثابتة لكل حديث او بحث او عمل ادبي متعلق بحقبة الاضطهاد تلك، حتى ان الحديث عن الحرب العالمية الثانية برمتها، لا يستقيم، وفقا لذلك المنطق، الا بالاعلان عن ان (المحرقة) هي الفصل الاساسي من تلك الحرب، وان المحرقة هذه هي واقعة خاصة باليهود دون غيرهم.

تتفق غالبية المصادر على حقيقة ما جرى لليهود تحت الحكم النازي فهناك العديد العديد من الادلة التي تؤكد صحة وقائع القتل الجماعي التي ارتكبها النازيون في معسكراتهم. وهناك ارث كبير من الصور والوثائق والاعترافات والافلام السينمائية تركه الالمان اثر سقوط دولتهم. وكان قضاة المحكمة في نورنبيرغ قد شاهدوا العشرات من الافلام السينمائية التي صورت داخل معسكرات الاعتقال من قبل «وحدة الارشيف» الالمانية التابعة لوزارة الدعاية التي ترأسها دائما الوزير الشهير زيوسف غوبيل»، وكانت الافلام المذكورة قد عرضت دون موارية او خجل مشاهد بشعة لعمليات التصفية الجسدية لنزلاء المعتقلات، برصاص الجنود احيانا، او من خلال الشنق بالحبال احيانا اخرى.. (لا توجد مشاهد سينمائية لعمليات ادخال الضحايا الى غرف الغاز واو اخراجهم جثثا منها، ولا لعمليات احراق الجثث تلك في الافران المخصصة لذلك).

اضافة للافلام السينمائية تلك، استمع قضاة نورنبيرغ الى عشرات الافادات التي تقدم بها الناجون من معسكرات الاعتقال (يهودا وغير يهود)، وكانت افادتهم جميعا تؤكد على ان القمع الجسدي هو جزء يومي من برنامج الاعتقال الذي عادة ما ينتهي في تلك الغرف الاسمنتية المربعة التي يدخلون الناس اليها ولا نعود نراهم ابدا».

الغرف الاسمنتية المربعة تلك، هي غرف الغاز، كما ستعرف المحكمة يومها وتعرف البشرية لاحقا. والضحايا هم من اليهود بنسب كبيرة، اضاف لاعداد غفيرة من المعارضين السياسيين الالمان واعضاء من فرق المقاومة في الدول المحتلة، والعجز من الدول ذاتها وبعض المثقفين والمثليين الجنسيين. فالنظام الشمولي، عسكري المنطق والسلوك، الذي بناه النازيون لم يميز في اسباب القمع بين يهودي او غجري، بين شيوعي او مثقف يساري، او بين معارض الماني او مقاوم تشيكي. فالاخر، الذي تستهدفه آلة القمع هو كل معارض لذلك النظام ورافض لوجوده، مع التأكيد هنا على ان نظرية ـ التفوق العرقي ـ التي شكلت رافدا فكريا هاما للفلسفة والدولة النازيتين، قد لعبتا الدور الاساسي في تأجيج عمليات القمع ضد الاقليات كما حدث فعلا تجاه الغجر واليهود الذين جاء ترتيبهم العرقي وفقا لتلك النظرية في مراتب دنيا، وكان «ادولف هتلر» (1889 ـ 1945) صاحب تلك النظرية قد ضمن كتابه الشهير «كفاحي» قائمته للترتيب العرقي والتي يجيء فيها العرب (من باب التذكير فقط) في مرتبة اكثر سوءا من جيرانهم اليهود والغجر وافضل قليلا من اخوانهم الافارقة!

صاحب كفاحي يصبح رئيسا

بعد اقل من عقد واحد على صدور «كفاحي» 1924 سوف يتمكن صاحب الكتاب نفسه ادولف هتلر، وعلى اثر انتخابه مستشارا لالمانيا في 30 كانون الثاني (يناير) 1933 من وضع نظريته سيئة الذكر موضع التنفيذ، لتبدأ من هناك رحلة العذاب لمواطني القارة العجوز، ثم لاجزاء اخرى عديدة من العالم، تلك الرحلة التي انتهت بسقوط الملايين من الضحايا، سقط بعضهم على جبهات القتال. واعدم بعضهم في السجون ومعسكرات الاعتقال ومات بعضهم الاخر خنقا بتأثير الغازات السامة التي رشحت بها غرف الغاز في اوشفيتز وماوتهاوزن وغيرهم، وكان لليهود النصيب الاكبر من طريقة الموت الاخيرة هذه حاملة الاسم الشهير: هولوكوست.

«اوروبا والهولوكوست»

حين بدأت اوروبا تخرج من دمارها الشامل بعد عام 1945، على اثر سقوط النظام النازي في برلين واعلان الحلفاء عن نهاية الحرب العالمية الثانية في 8 ايار (مايو) من تلك السنة، كان الدمار الاخلاقي الذي احدثته الحرب قد حفر عميقا في الذات الاوروبية العائدة لتوها من رحلة الموت الطويلة، والباحثة في الوقت ذاته عن اجوبة ممكنة للعديد من الاسئلة الصعبة، والتي ليس اقلها سؤال الضمير الذي راح يطرح منذ نهاية الحرب وحتى يومنا هذا: كيف سمحنا لزعيم الحزب الوطني الاشتراكي ادولف هتلر بفرض الحرب على القارة والعالم؟ كيف سمحنا لذلك النظام العنصري بارتكاب مجازر جماعية ضد مواطنينا من رعايا الاقليات؟

كيف هبطنا من علياء المبادئ التي جاءت بها الثورة الفرنسية، الى الانحطاط الفكري الذي انتج الهولوكوست؟! وكيف وكيف.. وعشرات الـ«لماذا» الاخرى التي ادت الى صدور مئات الكتب والمراجعات النقدية ناهيك عن الناتج الفني بفروعه المختلفة، والتي انشغلت جميعها بسؤال الضمير ذاك، لتنتهي غالبا، الى الاجابات، او الحلول ذاتها، والتي يمكن اختصارها في النقاط التالية:

1 ـ دراسة اسباب الحرب والنتائج التي افرزتها، بمنهج نقدي شديد الصرامة والشفافية في آن، يطمح به ومن خلاله في الوصول الى شكل من اشكال التصالح مع الذات والتاريخ، من ناحية، وتعميق مبادىء السلام، داخل حدود القارة، بحيث يغلق الباب امام امكانية العودة الى الحرب، وبشكل نهائي، من ناحية ثانية.

2 ـ اعلان مبدأ الاعتراف بالخطيئة، حين يتعلق الامر بمراجعة ملف الهولوكوست تحديدا. كوسيلة لاستعادة الطمأنينة المفقودة للذات الجماعية الرازحة تحت وطأة الاحساس الثقيل بعقدة الذنب. وبناء جسور جديدة، عبر الجلد الدائم للذات، مع الاخر.

تنوعت الطرق التي جلدت بها اوروبا ذاتها، وتوزعت لتشمل كافة ميادين الناتج الانساني، فهي ثقافية تبدأ من الشعر والرواية ولا تتوقف عند حدود الرسم والمسرح او الموسيقى والسينما.

وهي سياسة تعكس احساسها بالذنب من خلال قرارات احزابها الحاكمة المتعلقة بتسيير شؤون رعاياها اليهود: «توفير الحد الاقصى من وسائل الراحة القانونية والاجتماعية للتنظيمات اليهودية المدافعة عن اسرئيل، او تلك التي تدور في فلكها. وتسهيل شروط الاقامة والعمل امام الوافدين اليهود، وعلى اختلاف منابتهم».

اما على صعيد السياسة الخارجية لتلك الاحزاب فان علاقة الود الراسخة مع اسرائيل منذ قيامها في عام 1948 وحتى اليوم، فهي المثال الساطع على طبيعة تلك السياسة. ويمكن لأي قارىء لهذه السطور ان يعدد بشكل تلقائي عشرات الامثلة عن علاقة الود التاريخية تلك.

جلد الذات الثقافي والسياسي رافقه بالطبع جلد ذات اقتصادي لا يرحم، فاوروبا التي نهضت من رماد الحرب بسرعة مثيرة، وحققت فوزتها الاقتصادية العجيبة مع مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، بدأت منذ ذلك الوقت، وعلى الفور، في التكفير عن ذنوبها ماديا من خلال الدعم غير المحدود لاسرائيل، والتي اصبحت مع الوقت، المستفيد الاول من خيرات القارة في الخارج، واصبحت التنظيمات المذكورة اعلاه والرعايا اليهود من كبار المستفيدين من خيراتها في الداخل «قروض بلا فوائد. وتعويضات كبيرة» ولهذه القصة ايضا يمكن استحضار العشرات من الامثلة. التي لا يتسع المجال لذكرها الان.

ربما نجحت اوروبا في تحقيق بعض الغايات المذكورة في النقاط اعلاه، فقد تمكنت، على سبيل المثال، من منع الحروب على اراضيها (اوروبا الغربية تحديدا) واصبح السلام قناعة وسلوكا، هو خيارها الوحيد للخروج من ازماتها الداخلية، كما تمكنت من زرع الهولوكوست، كحدث مقدس غير قابل للمس او النقاش، في صلب ناتجها الفكري والثقافي.

ولكنها اخفقت ايضا على صعيد اخر، على ذلك الصعيد الذي يمس روح رسالتها الانسانية مباشرة، فأوروبا التي اخذت بمبادىء الاعتراف بالذنب، وعملت على تعميقها في وجدانها العام، لم تكن تدرك.. او لا تريد ان تدرك ان ابناء الضحايا واقاربهم الذين قدر لهم الهروب من المصيدة النازية، قد شرعوا على الفور بالمشاركة في صناعة هولوكوست جديد ضد الشعب الفلسطيني، في بلاده البعيدة عن اوشفيتز وماوتهاوزن وغيرهما.

ظلت اوروبا لا تدرك ولا تريد ان تدرك ان قيام اسرائيل في تلك الايام من عام 1948 كان ممكنا فقط، من خلال جهودها، هي، في قمع رعاياها اليهود وتشريد من بقي منهم على قيد الحياة، ليصبح الهولوكوست الاول سببا حقيقيا ومباشرا للهولوكوست الثاني، فلولا بشاعة الاول لما كانت لفجائع الثاني ان تصبح واقعا يوميا ندفع ضريبته العالية منذ ستة عقود. استمرت حالة عدم الادراك تلك، او الرغبة بها، قائمة بشكل او بآخر حتى عام 1967، حين بدأ العمل الفلسطيني المسلح بالانتشار فعليا على اثر الهزيمة، فاتحا الطريق امام العمل السياسي الذي تعمد بوقوف الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات امام الجمعية العامة للامم المتحدة في عام 1974 ليلقي خطابه الشهير.

من هناك، وكنتيجة فعلية للعمل المشترك.. العسكري والسياسي، راحت التراجيديا الفلسطينية تفرض نفسها وتفاصيلها، مرغمة الضمير الاوروبي على التعاطي معها، من بعيد اولا، قبل ان يشرع شيئا فشيئا بالاستماع الى نبضها الداخلي، ليجد نفسه..

ذلك الضمير المزين بشعارات لا حدود لها حول حقوق الانسان، متورطا في ازمة مزدوجة، فهو المسؤول فعليا واخلاقيا عن الهولوكوست الاول، وهو المسؤول اخلاقيا ومنطقيا عن الهولوكوست الثاني، وعليه الخروج من المأزق.. فكيف؟ معتمدة على ضعف الجبهة العربية، السياسي والثقافي والعسكري ايضا، اختارت اوروبا حلا بسيطا للخروج من مأزقها الاخلاقي، يتمثل باغلاق الباب امام حقائق الهولوكوست الفلسطيني، وابعاده عن حسابات الضمير اياها، وذلك مقابل الحفاظ على ذلك الباب مشرعا كما هو، امام مطارق الهولوكوست الاول وعذابات الضمير التي انتجها.

صحيح ان العذاب الفلسطيني قد ادى ببعض الكتاب والمثقفين في اوروبا للوقوف الى جانب القضية الفلسطينية. وصحيح ان العنف الاسرائيلي يدفع ببعض قادة الدول الاوروبية لتوجيه انتقادات خجولة لاسرائيل، بين الحين والاخر. ولكن الصحيح ايضا وايضا هو ان قدسية الهولوكوست ما زالت تقف بشكل غير منطقي امام البحث عن حل عادل لضحايا الهولوكوست الثاني، وما «تهمة معاداة السامية» التي يقذفها الاعلام الاوروبي، عالي السطوة، في وجه كل منتقد لسياسة اسرائيل «سياسة اسرائيل فقط» وليس معتقداتها الدينية او هوياتها العرقية، سوى دليل بسيط على عمق الهوة بين اوروبا رقيقة القلب ولسلوك تجاه ضحايا الهولوكوست، وغليظة القلب والسلوك تجاه ضحايا الهولوكوست الثاني ليصبح منطق القوة، والمال هذا، هو الاداة الوحيدة الممكنة لتفسير هذا الكيل الفج بمكيالين؟!

منطق القوة هذا، والذي تسبب بحروب كونية وعذابات انسانية لا حصر لها، يجعل من السؤال حول حقيقة عقدة الذنب الاوروبية هذه وعذابات الضمير برمتها، مشروعا؟ فهل يعقل ان ينقسم الضمير الانساني الى معسكرين، يقبل احدهما بالضحية الاولى، ويقدس مرورها في التاريخ، ويرفض في الوقت ذاته حقيقة وجود الضحية الثانية.. وجودها الفعلي حاليا.. ويستريح بذلك؟!

هل كذبت اوروبا على نفسها وعلينا، وعلى راهب التاريخ الذي اعترفت امامه بذنوبها؟! هل كانت عقدة الذنب هذه، وتداعياتها التي نجلد بها صباح مساء مجرد خديعة سياسية، لا نعرف ماذا تريد، او الى اين ستقود؟ الا يبدو الضمير الاوروبي، وذلك المقدس هو الاخر، مسؤولا اليوم كما كان بين الاعوام 1933 ـ 1945 عن العديد من الاسئلة الشائكة التي تمثل القضية الفلسطينية الان اهمها دون ادنى شك؟

إسرائيل والهولوكوست

نادرة للغاية هي الامثلة التي نقلها التاريخ الانساني المكتوب عن علاقة استغلال ممنهجة للفجائع البشرية، كما هو حال العلاقة بين اسرائيل والهولوكوست. ونادرة ايضا اخبار الجاعات السكانية الصغيرة التي تمكن من تحويل الضحايا الى مشاريع اقتصادية وثقافية واخلاقية كبرى، كما فعلت الجماعات الصغيرة التي شكلت منها اسرائيل، كما ان التاريخ المكتوب ذاك لم يخصص لضحية دون غيرها، موقعا مميزا ومحظورا يشبه المكانة والمزايا الخاصة التي تحاول اسرائيل فرضها على ضحايا الهولوكوست، في الوقت الذي تناست فيه البشرية، او تكاد، مزايا وخصوصيات الضحايا الاخرين، الذين لم يكن الهنود الحمر في امريكا اولهم، ولم يكن الارمن الذين تعرضوا للابادة على أيدي الدولة التركية اخرهم؟! على ثلاثة اصعدة مركزية، لا يقل احدها اهمية عن الاخر، استفادت اسرائيل، والى الحد الاقصى، من حكاية الهولوكوست:

1 ـ رفد الهولوكوست، بما هو مشروع ابادة وتشريد، الوجود اليهودي في فلسطين بعشرات الالاف من القادمين الجدد الذين ارغموا، وبطرق مختلفة، على الفرار من ديارهم الاوروبية. فأمام قمع الدولة النازية الشديد من ناحية، وسياسة بث الرعب التي مارستها المنظمات الصهيونية الناشطة انذاك من ناحية ثانية، لم يعد امام اليهودي العادي (غير الصهيوني) من خيار اخر سوى الفرار، بحثا عن وجهة جديدة آمنة، كانت فلسطين، التي جعلت المنظمات الصهيونية، على توجيه الهجرة اليها، احداها. شكل الهولوكوست مصدرا حيويا للطاقة البشرية استعانت به المنظمات الصهيونية العاملة انذاك في فلسطين على الشروع ببناء وطنها المزعوم.

كما استعانت به ومن وحيه الدولة العبرية، لاحقا، في رفد قوتها السكانية بدماء جديدة، وما زال الهولوكوست يلعب، وحتى يومنا هذا دورا نفسيا كبيرا في احداث حالة من الشرخ بين اليهودي وعلاقته، غير السوية تماما، اصلا بوطنه الاوروبي الام، الذي يدفع، بتأثير ذلك العامل النفسي، الى جانب مؤثرات عديدة اخرى (اقتصادية على الاغلب)، الى تركه والهجرة الى اسرائيل، حيث الامن والامان والرخاء الاقتصادي الموعود، في حضن القبيلة هناك؟!

2 ـ مثل بقرة مقدسة، دائمة القدرة على العطاء، تحول الهولوكوست على أيدي الدولة العبرية والمنظمات الصهيونية المنتشرة في ارجاء الارض، فهو مصدر اقتصادي من طراز خاص ورفيع، وهو البضاعة المحملة دائما بجاذبية سحرية لا ترفض او ترد، ولا يراد لها ان تتلف ابدا.

باعت اسرئيل ومنظماتها الصهيونية العديدة، بضاعة الهولوكوست على شكل «اتفاقيات تعويض» كبيرة، كانت المانيا ولا تزال هي الطرف الاساسي فيها، فهي الدولة التي تسبب نظامها النازي القديم بوقوع الكارثة. وهي، لحسن حظ اسرائيل، الدولة التي تتمتع بنفوذ اقتصادي كبير، لن تضعفه بحال بنود التعويض التالية:

ـ دفعت المانيا «دية» عن كل ضحية من ضحايا الهولوكوست الذين اتفق على ان عددهم هو ستة ملايين انسان.

ـ دفعت المانيا تعويضات سخية عن الممتلكات اليهودية (عقارات، مصانع، عيادات، الخ) التي صودرت في العهد النازي. كما دفعت تعويضات تقديرية عن فترة استغلال تلك الممتلكات (تشغيل العقارات والمصانع.. الخ) في ذلك العهد.

ـ دفعت المانيا تعويضات عن استغلال الايدي العاملة اليهودية (عمال السخرة) التي استخدمتها الدولة النازية في مشاريعها العديدة والمتنوعة (مصانع الاسلحة بشكل خاص)، بدون مقابل.

ـ قامت المانيا ببناء العشرات من المشاريع الاقتصادية التي تعود خيراتها على ورثة الضحايا داخل اسرائيل. كما تقدم المانيا، وفقا لسياق التعويضات هذا، مساعدات سنوية سخية لاسرائيل.

اتفاق التعويض الالماني ـ الاسرائيلي اعلاه، تبعه اتفاق نمساوي ـ اسرائيلي، تعهدت بموجبه النمسا، وبصفتها الشريك الاساسي لالمانيا في الجريمة، بتنفيذ كافة البنود التي وافقت عليها جارتها الالمانية، وقد التزمت النمسا ولا تزال بتلك البنود سابقة الذكر.

اما الدول الاوروبية الأخرى فقد التزمت من جانبها بالبند الثاني من الاتفاقيات، حيث قامت بدفع تعويضات عن مرحلة استغلال الممتلكات اليهودية، في ظل غياب اصحابها ابان سنوات الحرب.

على الجانب الاخر من المحيط، داخل الولايات المتحدة الامريكية تحديدا، تمكنت المنظمات الصهيونية من تحويل الهولوكوست الى «صناعة حقيقية» على حد تعبير الكاتب اليهودي الامريكي (نورمان فنكلشتاين) تمتد سطوتها الى حقول عديدة، ليس اولها صناعة السينما، وليس اخرها مراكز جمع التبرعات التي تفعل فعلها المؤثر هناك.

نحن نعرف ان هوليوود لاعب اساسي في الدورة الاقتصادية للولايات المتحدة، ومشارك فعال في بناء الرأي العام الامريكي وبلورة مواقفه حول قضايا العالم الخارجي، الى جانب كونها مركزا استثماريا ضخما لرجال الاعمال اليهود الذين يتمتعون بنفوذ مالي وفكري كبير داخلها.

اعتمدت هوليوود هذه وبصورة مستمرة على وقائع الهولوكوست كمصدر لا ينضب لانتاج القصص واعادة انتاجها او تأويلها احيانا، فقامت باخراج العشرات من الافلام الخاصة بالكارثة، او المستمدة من روحها، والتي اعتمدت دائما حبكة واحدة تبدأ عادة من تسليط الضوء على براءة الضحية وعمق نبالتها، لتنتهي غالبا، عند تحول ورثة الضحية تلك الى ابطال جدد، لهم القدرة على رد الاعتبار للضحايا وتخليدهم بالنصب التذكارية مرة، والتحذيرية مرات اخرى. في حين غابت وتغيب الى الان عن تلك الافلام صورة الضحايا الجدد، الذين يبني «الورثة» في اسرائيل انصابهم ومعابدهم المقدسة فوق اراضيهم المغتصبة.

الى جانب هوليوود يحتل الهولوكوست موقعا هاما في وسائل الاعلام الامريكية المختلفة (هي الاخرى تلعب دورا هاما في الدورة الاقتصادية من جهة، وفي صناعة الرأي العام من جهة ثانية)، فالهولوكوست مبرر هام، بالنسبة لتلك الوسائل الاعلامية، للدفاع عن اسباب قيام الدولة العبرية: حاجة الضحايا لبيت آمن ـ والدفاع عن سياساتها غير الانسانية تجاه الفلسطينيين بمنطق: «حماية ذلك البيت من وحشية البرابرة». كما ان هناك دورا خاصا يقوم به الاعلام الامريكي في عملية جلب المزيد من الدعم المادي لصالح اسرائيل «المهددة بخطر الفناء» من خلال البرامج الدعائية والسياحية وحملات جمع التبرعات، الى جانب الكثير الكثير من الوسائل المختلفة التي تصب مجتمعة في خانة دعم الدولة العبرية من جهة، والتأثير المباشر على صانعي القرار السياسي في الادارة الامريكية، من جهة ثانية.

لقد نجحت اسرائيل في تحويل الهولوكوست الى وسيلة انتاج شديدة النفع، وعرفت كيف تحافظ على تلك الوسيلة السحرية كمصدر مالي عظيم، لعب دورا حاسما في مد الدولة العبرية، ابان ولادتها تحديدا، بالقدرة على الوقوف، ثم ساعدها على الاستمرار.

3 ـ ارتبط النجاح الذي حققته اسرائيل على الصعيدين المذكورين اعلاه ارتباطا عضويا بحزمة شائكة من الركائز الثقافية والفكرية ذات الطابع الاخلاقي، والتي اصبحت مع الوقت وحسن العناية «دستورا مقدسا» تشرعن به الدولة العبرية اسباب وجودها ومنطقها العنيف، محولة الهولوكوست من حدث مأساوي كبير ومؤلم، الى ايديولوجيا دولة، لا يتوانى البعض، الاسرائيلي واليهودي الاوروبي او الامريكي، عن رفعها لمراتب العقيدة، الى توراة حديثة، صنعوا لها ما للمقدس من خشية وحضور، وجعلوا لها ما للمقدس من فروض الطاعة، ولها، كما للمقدس اولا واخيرا، القدرة والحق على الوعظ وتقديم الدروس الاخلاقية القاطعة والملزمة في آن.

كان الدرس «الاخلاقي الجوهري» الذي حبكته اسرائيل من وحي الهولوكوست هو: تحريم النظر الى اغتصابها فلسطين، الا من وجهة نظر واحدة. تلك التي ترى فيها، بما هي الوريثة الشرعية الوحيدة للضحايا، تجسيدا لحق اولئك الملايين الستة، في الدفاع عن اسباب خلودهم شبه الاسطوري، وفي «حق ورثتهم في البحث عن مكان آمن» لا تهدده مخاطر نازية، او معسكرات اعتقال جديدة.

تغلغل هذا «الدرس الاخلاقي» الحديدي، الذي رافق قيام الدولة في عام 1998، في جميع ميادين الانتاج الثقافي الاسرائيلي، واصبح مع مرور الوقت وتوفر العوامل المساعدة ليس مجرد وجه سافر وجوهري لتلك الثقافة بل شكلا من اشكال «الفلسفة المتكاملة» للحياة وفنون البقاء على قيدها ايضا.

وكانت الفلسفة تلك، وهي الحافلة بالمتناقضات والهشة من الداخل، قد اكتسبت مدا معنويا هائلا، بوقوف، ثقافة «عقدة الذنب» الاوروبية الى جانبها، ليشكلا معا قلعة فكرية غارقة في المحرمات والمقدسات واسباب العقاب. هذا، ناهيك عن الثقة الاسرائيلية العمياء بالنفس، الثقة التي اكتسبت من وحيها، ومن وحي حقيقة الانتصارات التي حققتها الدولة العبرية في صراعها حروبها مع محيطها العربي.

ادارت اسرائيل اذن كارثة الهولوكوست بمهارة وحرفة «عاليتين» فقد تمكنت المنظمات والعصابات الصهيونية من توجيه خطر الهجرة اليهودي الاوروبي 1933 ـ 1945 نحو فلسطين، فتقوى وضعها الديمغرافي هناك، ثم نجحت «الدولة» في توظيف الهولوكوست اقتصاديا وجنى ربحا عظيما من وراء ذلك، ولكن الصهيونية اخفقت ايضا، في الميدان ذاته الذي اخفقت فيه اوروبا حين وظفت «حسها الانساني الجمعي» في خدمة الهولوكوست وجمدته حين تعلق الامر بمأساة الفلسطينيين.

كان لا بد لاسرائيل، بما هي قوة اقتلاع وقوة اغتصاب كثيفتين، ان تخفق «اخلاقيا وفكريا» في جعل الهولوكوست سببا لقيامها هي، فلا رابط منطقيا او اخلاقيا يجمع طرفي الكارثتين، الا ذلك الرابط الانساني العادي الذي يجعل من فلسطين، حتى في عام 1945، ملاذا آمنا لمجموعة بشرية تتعرض للاضطهاد، وما عدا ذلك، هو مجرد احتيال مرعب على جوهر المعاناة الانسانية التي يتم تحويلها، اعتباطا، الى سبب مباشر لخلق معاناة انسانية جديدة.

لقد قامرت اسرائيل بعظام الملايين الستة الذين ورثتهم بأثر رجعي، وحولتهم الى احجار اساس لـ«مشروعها الوطني»، وراحت تمارس دور الرقيب والمحاسب لكل وجهة نظر تخالف وجهة نظرها المذكورة اعلاه. ولم تع اسرائيل فداحة الخسائر التي تسببها هي ذاتها لضحايا الهولوكوست. ولم تع ان وجودها ذاته هو النقيض تماما لحق الضحايا في الكرامة والخلود، وان سياستها ومنطقها القائمين على ضرورة الغاء الاخر يشكلان تدنيسا لتلك الارواح التي ازهقت في «الغرف الاسمنتية المربعة». ولم تع اسرائيل، مرة اخرى واخرى، ان الوقوف الاخلاقي الى جانب الضحية هو فعل مطلق، متكامل، وهو لا يقبل التفرقة. وان الوقوف الى جانب ضحايا الهولوكوست هو وقوف اجباري ضد الفكر العنصري الذي تسبب بسقوطهم، وهذا الفكر العنصري، هذا الكم الهائل من القدرة على البطش، وهذه الرغبة بنفي الاخر ـ الفلسطيني، هما من ابرز السمات التي تميز المشروع الاسرائيلي في فلسطين.

فأي مشروع اضطهاد، اي مشروع لالغاء الاخر هو حامل بالضرورة لتلك السمات العنصرية، وهو بالضرورة مجرد استعادة واستحضار للمشروع النازي ذاته، لتكون اسرائيل والحال هي، قد ورثت الى جانب وراثتها المريبة لضحايا الهولوكوست، دوافع الاضطهاد النازية ذاتها، والتي شرعت بتنفيذها منذ عام 1948 وعلى أكمل وجه.

«العرب والهولوكوست»

حين بدأت ملامح هذه المادة تتشكل الى حد ما في ذهني، رحت افتش على الفور عن مراجع عربية، كتب او مقالات، يشكل الهولوكوست موضوعها المركزي، فلم اجد الا القليل، القليل الذي لا يتمتع بقيمة دراسية او توثيقية، ولا يشكل في النهاية مرجعا يعتد به. وقد كان بحثي عن تلك المراجع مضادا لمعرفتي شبه اليقينة بلا جدوى البحث اصلا، فلا يوجد شيء كثير او مصير خاص بالهولوكوست لأعثر عليه في حقل الثقافة العربية الواسع. كنت ابحث عما هو غائب، فتوقفت مكتفيا بما لدي من معلومات متواضعة حول موقف العرب وثقافتهم من موضوعة الهولوكوست، معتبرا، في الوقت ذاته، تلك الكتب والمقالات التي ظهرت في العالم العربي، على قلتها وتواضعها، ممثلا صادقا لموقف العرب من المحرقة.

كما انها حاملة لاشارات صريحة تدل على عمق العلاقة الاشكالية بين الثقافة العربية بمختلف فروعها والهولوكوست بوجوهه المتعددة.

اذا كان غياب الهولوكوست، موضوعا وبحثا، عن حقول الثقافة العربية، هو التجلي الاول للعلاقة الاشكالية تلك، فقد خلق ذلك الغياب المتعمد فراغا معرفيا انتهج بدوره عددا من المواقف الفكرية والسياسية النزقة والحاملة لردود فعل سطحية قادت مع الوقت الى تبين وجهات النظر التالية:

1 ـ إنكار الهولوكوست:

انسجاما مع نظرية «المؤامرة اليهودية العالمية» تميل طائفة كبيرة من العرب، تمثلهم الثقافة والمواقف السياسية، الى اعتبار الهولوكوست مجرد فكرة خبيثة للصهيونية العالمية التي اوجدتها واكسبتها حضورها الواقعي، ولان الفكرة هي دائما وليدة الخيال فهذا يعني ان الهولوكوست وفقا لذلك هو تخييل صهيوني يراد منه النيل من فلسطين واجتذاب تعاطف العالم مع اليهود، ليس اكثر.

2 ـ التشكيك بوقائع الهولوكوست:

تعتبر وجهة النظر العربية الثانية، هذه، ان الهولوكوست قد حدث فعلا، ولكنها تعرض في الوقت ذاته انواعا لا حصر لها من التصريف والتحريف، ادت مجتمعة الى «تضخيم ارقام الضحايا» وصولا الى عددهم الشهير (6 ملايين). وحتى تكتمل النظرة تلك، يسارع اصحابها الى حذف صفر، او صفرين احيانا، من رقم الستة ملايين، ويعلنون صراحة عن تشكيكهم بحقائق غرف الغاز وافران الحريق.

3 ـ تأييد المانيا النازية:

اذا كانت وجهات النظر الواردة اعلاه، على الرغم من سطحيتها وابتعادها عن الحقيقة، تدور في فلك الحق في حرية الرأي والتعبير عنه، فإن الرأي القائل بـ«نعم للهولوكوست» و«يستحق اليهود ما حل بهم على يدي الالمان» هو الاخطر بلا شك. فهذا الرأي الذي يعترف بوقوع المحرقة، ينزلق على الفور في مستنقع الاسباب التي اوجدتها، ليقف بذلك في خندق واحد مع الفكر النازي الاوروبي، قديمه وحديثه، دون النظر الى جوهر ذلك الفكر الذي لا يرى في غير «المسيحي الابيض» سوى مرشح دائم لمحارق جديدة.

يدفن الخطاب العربي، بشقيه الشعبي والنخبوي، رأسه في الرمل حين يتعلق الامر بمناقشة الهولوكوست او اتخاذ موقف واضح منه او من تبعاته، معمقا بذلك اسباب الخلاف، او العلاقة الاشكالية بعبارة ادت، مع حدث انساني كبير، ومتيحا في الوقت ذاته الفرصة اكثر فأكثر امام اسرائيل لاستغلال ذلك الحدث بشكل اكبر. فإنكار وقوع الهولوكوست او التشكيك بحجم وقائعه، وصولا الى حد تأييد المانيا النازية هي مجرد آراء ومواقف سطحية لا تقلق اسرائيل (على اعتبار ان المواقف تلك، في نهاية المطاف، هي تعبير عاطفي عن الرغبة في مقارعة اسرائيل، او رفض التسليم بوجودها، ليس اكثر).

فالحقيقة ان المواقف والاراء النزقة تلك تدعم حجة اسرائيل التي تعلن عن وصايتها وحدها على المأساة، وترث بصرف النظر عن الطريقة حقوقها وضحاياها.

كان جديرا بذلك الخطاب العربي ان يبحث لنفسه عن موقف انساني يليق بحجم الثقافة التي يمثلها، وهي، كما يعرف الجميع، ثقافة غنية ومتنوعة، عرفت عبر مراحل نموها وتطورها الكثير من دوافع التسامح والتضامن والقدرة، بين ما عرفت، على احترام الاخر.

كان الاجدى بذلك الخطاب ان يعمل على كشف الفارق الهائل بين الهولوكوست، بما هو مأساة انسانية عامة تخص الجميع، وبين اسرائيل، بما هي قوة احتلال، حاملة هي ذاتها للكثير من الدوافع النازية التي تسببت بهولوكوست الشعب الفلسطيني، وان الربط العنيف هذا، والذي اصبح منطقيا تماما بين قوة احتلال تتخذ من اليهودية مرجعا وسلاحا لها وبين جماعة يهودية تعرضت للاضطهاد في موطنها الاوروبي، ما هو الا ربط عشوائي، ولعب غير بريء بتاريخ القهر الانساني الذي يراد له ان يصب في سوق «صناعة الهولوكوست» التي تديرها الدولة العبرية بنجاح باهر، ومما لا شك فيه ان هذا النجاح يستمد بعض مقوماته من عصبية ذلك الخطا